إضاءة

عاصمة الثقافة العربية لعام 2024 ومَصير أسمائها

طَرابُلس... مدينة الآخرين

منذ قرن، كُنّا نُطلق على طرابلس اسم «أُمّ الفقراء»، ويشرح لنا هادي أنَّ هذا الاسم لا يحمل المعنى الذي يتبادر إلى الأذهان. ولكن، في نَظره - وفي ظل عُنف الدولة اللبنانية المفلسة - فـ«أم الفقراء» لا يعني سوى أنها الأمّ التي تنجبهم

آرثر سري الدّين

عاش هادي طيلةَ حياته هُنا، في طرابلس، أسفلَ وادي أبو علي. وكان يُسَمّي البيتَ الصغير الذي يتقاسمه مع بقيّة أفراد أسرته: «القفص». هنا، تَقتصر حياتُه على بضعة أمتار مُربَّعَة، مُتداعية، تملأها كتبُ تاريخ وملابس، تُزيّنها نافذة بَسيطة، مشبَّكة. عاطلاً من العمل، يقضي هادي أيّامَه في القراءة وملاعبة الببّغاء الصغير، القابع على كَتفه. يعتبره «رفيقَ سِجنِه».

كان هادي أوّلَ مَن فَتح عينيَّ على طرابلس، أثناء حَديثِنا، قربَ شجرة البرتقال، المجاورة لنافذته التي كان يَهرع إليها. ذاتَ ليلة، شرح لي أنَّ هذه الأشجار مثّلت فخرَ القرية، وأنه في أيّام الحُكم العثماني كانت تحتلّ كلّ البَساتين، وأنّ اللقاح المنبعث منها كان يملأ كلّ الطرقات خلال فصل الصيف، كما كان يعطّر قِشرُها المُجَفَّف الأسواقَ ويُنقَعُ في مياه الشُّرب، إلى درجة أنّ طرابلس لُقِّبَت بـ«الفَيحاء» أي العَطِرَة. أضاف هادي أنّ المَدينة كانت تحمل أسماء أُخرى، في ذلك الزمن، مثل: «مَدينة العِلم والعُلماء»، نظراً إلى مَدارسها التي لا تحصى، واسم «مَدينة التعايُش الإسلامي - المسيحيّ» الذي أطلقه قلمُ عبد الله غريب، في إشارة إلى وِئام دياناتها. إلا أنّه بالنسبة إلى هادي، لم تكن هذه الألقاب سوى أصداء بَعيدة، عَرفتها شجرة البرتقال المُعَمِّرَة، قَبْلَه ودونه.

لم تَعُد اليومَ طرابلس سوى المدينة - السّجن التي تَخنق «قَفَصه»، سجن لا يحتلُّ فيه شَجَرُ البُرتقال سوى بضعة أرصفةٍ حول المباني الثرية النّادرة، وحيث تُغلق المدارسُ الحكوميّة أبوابَها بسبب نَقص الإمكانات، مدينة عُذّبت ونُسيت وتشوَّهَت، فقط في قرنٍ واحدٍ من الزمن... وهذا هو عينُ مَصير أسمائها.

«أُمّ الفقراء»

كان محمّد، جدُّ هادي، شاهداً على ولادة لبنان. لكن لم يكن له أيُّ حَنينٍ لحِقبَة «الانتداب» هذه، كما هو حال بعض الأجيال البيروتيّة حتى يومنا هذا. بالنسبة إليه، كانت ولادة لبنان، في الأساس، من مظاهر انحطاط المَدينة، ظهور هويّة مُتقاطعة عَذَّبت أُخرى. ففي عهد «الانتداب الفرنسي»، رُسمَ حدٌّ فاصلٌ بين دَولَتَين فَتِيَّتَيْن: لبنان الكبير حيث انطوَت طرابلس، وسورية التي أضحت «جارةً» على بُعْد بضعة كيلومترات.

جرّاءَ خطّ الحدود هذا، أن تكون طرابلسيّاً يعني أن تنتميَ إلى الهامش.

ينقسم داخلُ شمال لبنان الطبيعي إلى قِسمين، مع أنّه يمثّل أحد أهم بوّابات التجارة من الشرق إلى غاية العراق. وبالتوازي مع ذلك، فإنّ جنوبَ سورية الخاضع «للانتداب» شجّع، آنذاك، على تطوير ميناء طرطوس لينافس ميناء طرابلس، الواقع على بعد مسافة لا تكاد تتجاوز ستّينَ كيلومتراً. وُلد أول فُصول انحطاط المدينة من لُبنانيّته، ثم من قَدَرها كهامش، وهو ما استمرَّ بُعيْد الانتداب الفرنسي. انتهى لبنان الفتيّ إلى التشظّي خلال الحرب الأهلية التي استمرّت خمسة عشر عاماً. انقسمت طَرابلس إلى مناطق مسيحيّة عدّة تُحيط بها، وبَنَت هذه الأخيرة علاقات اقتصادية متينة، أقصت المدينة التي ستتجمّد في مرحلة ما بعد الحرب لتتركها أكثر انعزالاً. خلال مرحلة إعادة الإعمار، استحوذت بيروت على أهمّ الأرصدة. وظلّت طرابلس تُعاني في ظلال العاصمة. قريبة جدّاً من سوريّة حتى تكون لبنانيّة حقّاً، فهي عربيّة جدّاً، سُنّية جدّاً، بعيدةٌ جدّاً.

منذ سنوات مَضت، واجَهَ هادي جَدَّه قائلاً: منذ قرن، كُنّا نُطلق على طرابلس اسم «أُمّ الفقراء». وقد شَرح لنا الشيخ محمد أنّ هذا الاسم لا يحمل المعنى الذي يتبادر إلى الأذهان، وأنّ اسم «أُمّ الفقراء» يُصوّر طرابلس كما لو كانت أمّاً تَعتني بأشدّ الناس عَوَزاً وتغذّيهم، هي أُمٌّ تحرص ألّا يُحطِّمَ العَوَزُ الكرامَةَ. ولكن، في نَظر هادي الحالي، في عُنف الدولة اللبنانية المفلسة، «أم الفقراء» لا يعني سوى أنها أمٌّ تنجب البُؤس والفقراء.

«وكر الإرهابيّين»

ومع ذلك، ظهر في طرابلس نفسها العديد من مليارديرات البَلد. بعضهم شيّد إقامات تنتصب بكل غَطرَسة، هُنا وهُناك، بين مُفتَرَقات البؤس، غالباً في غَرب المدينة، في طرابلس الأثرياء التي لم تَعُد تتركّز فيها كثيرٌ من الثروات، كما كان الحالُ سابقاً. فمنذ الأزمة الاقتصادية لم يعد تقسيم المدينة إلى «غرب محظوظ» و«شرق فقير» قائماً. إذ عانت جيوب الاختلاط الاجتماعيّ في الغرب، مثل منطقة الميناء، هي الأُخرى خلال العَشريّات الأخيرة. في سنة 2010، أصاب هجومٌ مزدوَج بسيارتين مفخّختين، قربَ مسجد «السلام»، منطقة الميناء بصدمة بالغة. وكان هذا الهجوم الأكثرُ دمويّة منذ نهاية الحرب الأهلية، حيث فقد سبعة وأربعون شخصاً حياتَهم. في تلك الأيام، لم تعلن أي جهة مسؤوليتها عن الهجوم. لكنّ البعضَ رأى فيه بصمات نظام بشار الأسد، في سورية المجاورة.

خلال هذه العُشرية، ستقترن طرابلس بالإرهاب أكثر من أيّ وقت مضى. وبينما تستعر الحرب على بعد بضعة كيلومترات، على الجانب الآخر من الحدود، تنشط خلايا «داعش» في شمال لبنان. «مدينة الفقراء» أرض خِصبة للجَماعات المتطرّفة الصغيرة، أصبحت «وكراً للإرهابيّين»، حيث صارت العديد من وسائل الإعلام الوطنية تربط طرابلس بانعدام الأمن والأسلحة والمآسي.

«عروس الثورة»

في سنة 2019، وبينما كان لبنان ينحدر إلى أسوأ أزمة اقتصادية في تاريخه، احتلّت طرابلس صدارة المدن الأكثر نشاطاً خلال حراك الثورة. وكان هذا الحراك مُدهشاً جدّاً بالنسبة إلى سائر المناطق اللبنانية التي استمرّت في رؤية المدينة من خلال منظور أوهامها. كانت المطالب هنا هي ذاتها التي في بيروت: المزيد من العدالة الاجتماعية، إنهاء الطائفيّة ورحيل كبار الزعماء الفاسدين. ورثت طرابلس، الأكثر قوّة وتطرُّفاً من المدن الثائرة الأُخرى، لقباً أخيراً: «عَروس الثورة». وعندما استنفدت العاصمة قوّتَها في الأشهر الأولى من عام 2020، عادت الاحتجاجات من جديد مع أعمال الشغب بسبب الجوع في طرابلس. كان القمع هناك أعنف وأعتى، ربما لأنّ انتفاضة طرابلس كانت تُهدّد بشيء أكبر. فقد اتّسعت فجوة عدم المساواة التي تفصل المدينة عن بقية البَلَد، واحتدمت آثارُها جرّاء تفشّي الطائفية والمحسوبية لدى النُّخب اللبنانية. يُشكّل هذا الانقسام، الذي هو شرط الحفاظ على الجماعات الطائفية في السلطة، أكبر تهديد له وهو قدرة مُدن، مثل طرابلس، على التفكير في نفسها كلبنانية، كأيّ مدينة أُخرى. وكم تثور ثائرة أمراء الحرب السابقين، في المنطقة، عندما يُسرق مخزونهم من الأصوات لصالح مجتمع سياسي! في أيّام إنشاء لبنان الحديث، كانت عناوين الصحف العربية تتحدّث عن «زفاف بيروت إلى جبل لبنان»، كزواج عاصِمة مُتاحة بدولة جديدة. وكصدى لهذه القصة، بَدت «عروس الثورة»، سنة 2019، وكأنّها زواج طرابلس مع بقية لبنان الذي أخضعها مثل جَيب منفصل... لكنّ العروس، والتي كانت بالضّرورة خاضعةً، أُهْدِيت لمن كان يلحظها على هذا النحو. وفي نهاية المطاف، لا يقول هذا الاسم شيئاً يُذكَر عن المدينة بقدر ما يروي قصة أولئك الذين يطلقون هذا الاسم. الذين ظلّوا، على مدى قرن كامل، يُسمُّونها ويطلقون عليها اللقب تلو الآخَر، من تلك الجيوب البعيدة لِلُبنان المُجَزَّأ والطائفي.

ومع ذلك، يُخبرنا التاريخ أنّ طرابلس ليست مجبرةً لا على إثبات لُبنانيّتها ولا على تمزيقها، لكنّ «اللّبنانية» ستظلّ دائماً ناقصة ما لم تتّحد مع طرابلس. على لبنان أن يتوقّف عن بتر طرابلس من جسده،
«مدينة الآخرين» الأبديّة،
روحٌ على هامش الوطن،
تلك التي نراها من بعيد، نحن الذين لسنا هناك،
والتي تنتظر أن تروي قصّتها بذاتها.

(كاتب وصحافي لبناني يكتب بالفرنسية، والنص خاص بـ«العربي الجديد»، ترجمَهُ نجم الدين خلف الله)

مدينة عُذّبت ونُسيت وتشوَّهت عبر قرنٍ من الزمن

وفقاً للحدود، أن تكون طرابلسيّاً يعني أن تنتمي إلى الهامش

«العروس» التي يتحدثون عنها

لا يقول هذا الاسم: «العروس» شيئاً يُذكر عن طرابلس بقدر ما يروي قصة أولئك الذين يطلقونه عليها. الذين ظلّوا، على مدى قرن كامل، يُسمّونها ويطلقون عليها اللقب تلو الآخر، من تلك الجيوب البعيدة للُبنان المُجَزَّأ والطائفي. ومع ذلك، يُخبرنا التاريخ أنّ طرابلس ليست مجبرةً لا على إثبات لُبنانيّتها ولا على تمزيقها، لكنّ «اللّبنانية» ستظلّ دائماً ناقصة ما لم تتّحد مع طرابلس وما لم يتوقف لبنان عن بتر طرابلس من جسده.

جانب من أحياء مدينة طرابلس القديمة، 2018 (Getty)

قراءة

«شطوب في مرآة» مصير جيل حرب لبنان الأهلية

بالنيابة عن شهود المرحلة

في رواية الكاتبة اللبنانية دلال قنديل يظهر كيف أعادت الحرب الأهلية ترتيب التحالفات، ومدى الانقلاب الذي أحدثته في حياة الناس القديمة

سومر شحادة

وثيقةُ جيلٍ من اللبنانيين، بالتحديد في إحدى قرىً الجنوب. حيثُ تتداخل مع الحدث اللبناني الفصائلُ الفلسطينيَّة، وقوّات الاحتلال الإسرائيلي؛ بثنائية المعتدِي الذي سرق الأرض واقتحم الجوار، والمعتدَى عليه الذي سُرق واقتُحمت أرضه. وهذا يحدث في فضاء الأحزاب والتيارات الدينية والسياسيَّة التي لم يُكتَب للبنان أن تكون إثراءً له، وإنَّما ظهرت لعنةً عليه. رواية الإعلامية والكاتبة اللبنانية دلال قنديل «شطوب في المرآة»؛ تعرضُ مصير جيل الحرب اللبنانيَّة في ضوء هذه التغيّرات التي عصفت بلبنان، وغيَّرت وجهه.

الرواية الصادرة عن «دار الرافدين» (2023)، مكتوبة بشخصيات قليلة، إلّا أنَّ جميع هذه الشخصيات، كلُّ بدوره، يمثّلُ تياراً ما. أبطالُ الرواية ليسوا أشخاصاً بقدر ما هم أحزابٌ وقوى، وصعود شخصية ما أو هبوط أُخرى، ليس أكثر من دلالة على صعود حزب أو تنظيم، وانهيار آخر، وهذا يحصل على خلفيَّة صراع المال والسلطة. حتى لكأنَّ الطوائف ذاتها، ليست أكثر من قناع زائف لفساد النفوس، ورجال الدِّين ليسوا أكثر من موظّفين صغار. لكن ليسَ لدى الأديان أو خدماً لله، وإنما لدى دار الإفتاء. في الرواية، كشفٌ للعقائد ولرموزها، وتأريخ لحقبة من تاريخ لبنان، الذي نسفه تناحر العقائد التي لم تكن أكثر من شكليّات هدفها أن تسرق اللبنانيين، انتهاءً إلى سرقة لبنان نفسه.

بهذه الصورة، تصعب قراءة العمل من غير الإشارة إلى ما يدلُّ عليه. فهو مكتوب بالنيابة عن شهود مرحلة، القصص التي فيه واللحظات المصيرية التي صنعت تحولات الشخصيات، ارتبطت بتغيراتٍ لم تحصل بفعل قوى المجتمع. وإنما يلمح القارئ تدخّل الإقليم. يلمح حروب التمويل، يلمحُ الدعم الذي تلقّته تيارات إسلامية في وجهِ أفراد ينتمون إلى اليسار. وهُم «أفراد» لأنَّ النص أمينٌ للواقع. فالكاتبة لا تُبالغ في استعراض ما توثّق له، لا تبالغ في تأويلاته، وإنما تعرضه بالتدخُّل الفني الأدنى الذي يجعل من نصها محاكاةً لمعادلات لبنان. وهي معادلات جعلت منه ساحة، الكثير من أبنائه خرجوا منها؛ إما إلى المنفى أو إلى الموت.

مع ذلك، فإنَّ النص يُظهر كيف أعادت الحرب ترتيب التحالفات، والتغيّرات العاصفة التي تلمُّ بشخصيات الرواية أحدثَها انقلابُ الحرب على الحياة القديمة التي كانت. أحدثَها نسفُ الحرب للعلاقات القديمة التي كانت. إذ نرى أنَّ العلاقة بين الشيخ خضر وعامر، وهما ثنائية الشيخ والشيوعي، قد تغيّرت. ليس فقط بالمعنى الذي يخدم لبنان، أو يخدم اللبنانيين في تلك القرية الجنوبيَّة؛ بل في أنَّهما تشاركا المرأة نفسها، مريم، وإنْ كان كلُّ منهما ذهب إلى مصيره خارج القرية. وعامر هو من ساعد الشيخ خضر للخروج من مأزقٍ رمته بهِ دارِ الإفتاء والمختار والبيك، عناصر تُلخِّص لبنان. والنص مكتوب ليؤدّي هذا العرض الرمزي الدالّ على قوى الواقع في حينها.

لكن ما يجمع تلك الرموز، هي مريم، التي بقيت في القرية مخذولة من العشاق، وخائبة من الأهل. وقد حمَّلتها الكاتبة ما جعلها تلتصق بصورة لبنان، إذ تلك المرأة المخدوعة؛ التي تمتلئ بالعيش، التي تتعلم القراءة في العشرينيات، ثم تنجز معمل خياطة لسيدات القرية، وتحاول قصارى جهدها أن تعيد الحياة العادية إلى طبيعتها القديمة، المنفتحة والإنتاجيَّة، بلا تدخل العمائم. ثمَّ بعد موتها، توصي أن يبقى ريع المعمل لمدارس محو الأمية.

حتى إن الرواية، أخذت عنوانها من مرآة مريم. ومع تقدّم الحكاية، نجد أن شطب المرآة، ما هو إلا انعكاسٌ لشرخ أصاب الحياة نفسها. وهو شرخ الحربِ. وقبل ذلك، شرخُ الجهل والأمّية، وغياب القرار اللبناني. حتى لكأنَّ الشطوب التي في المرآة، ليست إلّا ندبُ الحرب، ليست إلّا انقطاعات الأمل بالغد.

(روائي من سورية)

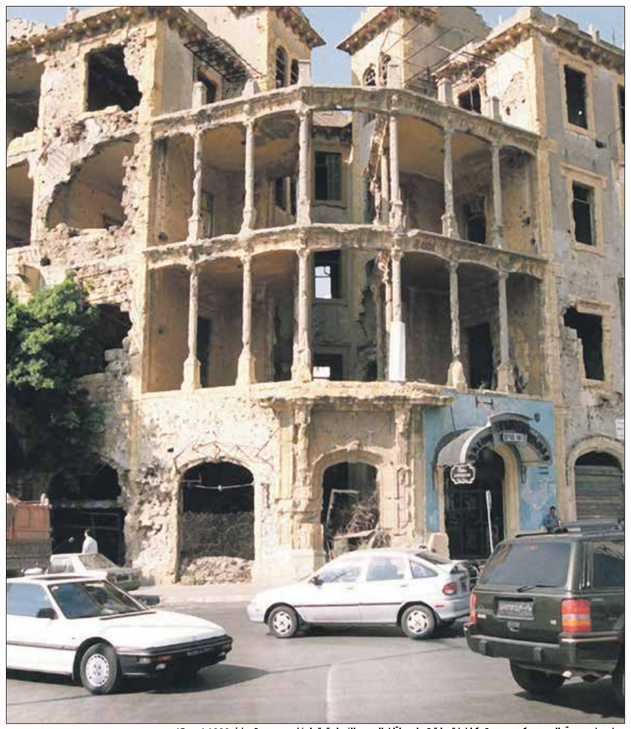

بلد نسَفه تناحر أهلي لم يكن سوى تغطية لسرقة وطن

مبنى في حيّ السوديكو ببيروت كان نقطة تماس إبّان الحرب الأهلية قبل أن يصبح متحفاً، 1999 (Getty)

أصدقاء فلسطين

إدواردو سوتيراس خليل: نعم أحبُّ غزّة ولا أعرف السبب

تعليمات لتوثيق فجوات الحياة

لا يتردد الفنان الأرجنتيني بالقول إنّه مع غزّة في ظلّ ما تعاني من حرب إبادة. يشعر بأنه فلسطيني، يحمل كاميرته ويصوّر الحياة وسط الدمار المُتعمّد

مدريد ـ **جعفر العلوني**

«نعم. أحبُّ غزّة ولا أعرف السبب. في تلك المرات التي زرتها، كنتُ أقوم بتصوير ما أعتقد أنني يجب أن أصوره. وكنتُ أفعل ذلك بنبرة مأساوية ومهيبة، كمثل كل ما كنت أراه. كنت ألتقط صوراً، وكانت صور أخرى تلتقطني». هذا جزءٌ من مقدمة المشروع الوثائقي (2014 – 2015)، للفنان الأرجنتيني، من أصل لبناني، إدواردو سوتيراس خليل Eduardo Soteras Jalil (قرطبة، الأرجنتين، 1973)، والذي يحمل عنوان «غزّة: كتيب تعليمات».

لم يكن التصوير ضمن خطط الفنان الأرجنتيني، فقد درس العلوم والمحاسبة وامتهنها لبعض السنوات. ولكنه، خلال زيارة إلى أوروبا، تعرّف على صور الفوتوغرافي الفرنسي من أصل تشيكي جوزيف كوديلكا (1938)، المعروف بلقب «مصوّر اللاجئين». كان عمره حينها ثلاثة وعشرين عاماً. قرّر السفر إلى بلجيكا. وهناك اقتنى كاميرته الأولى من نوع «نيكون إف جي 20»، ولم يكن لديه أدنى فكرة كيف تعمل. لكنه شيئاً فشيئاً، تعلّم عليها. حمل حقيبة الظهر وبدأ السفر والتصوير: من سويسرا إلى الكونغو، ومن برشلونة إلى إثيوبيا وصولاً إلى فلسطين. كان في أثناء هذا كلّه يفعل شيئاً واحداً لا غير: توثيق فجوات الحياة.

قد تكون محطة فلسطين، وغزّة، على وجه الخصوص، في عام 2014 هي أبرز محطات الفنان الفوتوغرافية، فهناك مكث قبل بدء عدوان الثامن من حزيران/ يونيو، واستطاع بعدسته، كما يقول هو نفسه «أن يستكشف الأماكن المشتركة في مكان يكاد أن يختفي اليوم، موثّقاً بذلك التفاصيل الصغيرة من الحياة اليومية. هدفي من ذلك الحفاظ على تلك الحياة الصغيرة. إضافة إلى أنني عشت تجربة العمل في واحدٍ من أحبّ الأماكن على قلبي. نعم أنا مع الفلسطينيّين»؛ والنتيجة كانت مشروع «غزّة: كتيب تعليمات» المؤلّف من سلسلة من الصور الفوتوغرافية تصوّر الحياة في ظل الدمار والموت.

لا تفسير عقلانياً للصور، إنها جاذبية أو عطر يُستنشق عندما يكون الإنسان محاطاً بالقتل والدمار المُتعمّد: زخرفة قاعة احتفال وسط الدمار، رجل ببالون أحمر على وجهه كتب عليه «أحبك»، بقايا قنبلة تحوّلت إلى أصيص من الورد، رجل يحمل شبلاً، صياد مسترخٍ على عربة تلاطم أمواج المتوسط أقدام حصانها. جميعها، وكل صورةٍ منها تكتسب اليوم في ظل الإبادة المُمنهجة التي ترتكبها «إسرائيل» منذ الثامن من تشرين الأول/ أكتوبر بعداً يمكن أن نطلق عليه، كما يحبّ الفنان نفسه أن يقول بـ «علم الآثار الوقائي».

لا يتردد الفنان الأرجنتيني في آخر حوار أجراه مع صحيفة «البايس» الإسبانيةً بالقول إنه مع غزّة في ظلّ ما تعاني من حرب إبادة. يشعر أنه فلسطيني: «لقد كانت غزّة سجناً في الهواء الطلق، ولكن مع ذلك استطاع الغزيون أن يعثروا على فجوات لتوليد الحياة. يمكن تشبيه الأمر بنبات السرخس الذي يفترش الجدران. عندما رأوا ذلك دمّروا حتى الجدار. هدموا كلّ شيء. لم يبق شيء. حتى إنني لم أكتب إلى أي من أصدقائي في غزّة لأسألهم عن أحوالهم. حقّاً أشعر بالخجل».

سلسلة صور فوتوغرافية تصوّر الحياة في غزّة وسط الدمار والموت

إدواردو سوتيراس خليل (Moeh Atitar)

فعاليات

فلسطين: الفنّ التاسع يوثّق ويتحدّى، عنوان معرض يتواصل في «مسرح المدينة» ببيروت حتى الثاني عشر من حزيران/ يونيو المُقبل. يجمع المعرض أعمال فنّانين من فلسطين والعالم العربي، في محاولة لتوثيق ماضي وحاضر العيش تحت الاحتلال، وتوثيق الإبادة التي ترتكبها «إسرائيل» في غزّة منذ أكثر من سبعة أشهر.

عند السابعة من مساء الرابع عشر من حزيران/ يونيو المقبل، يستضيف متحف «الملكة صوفيا» في مدريد محاضرة بعنوان **سرديات من فلسطين**، تشارك فيها كلّ من الفنّانتين الفلسطينيّتين **شروق حرب** و**لارا سلعوس**، وتديرها الفنّانة الإسبانية **سارا بونيد**. تتناول المحاضرة تجربة الفنّانات الفلسطينيات التعريف بالقضية الفلسطينية عبر العمل الفنّي، ومن وجهة نظر نسوية.

عند الخامسة من مساء السادس عشر من حزيران/ يونيو المقبل، يحتضن «معهد العالم العربي» في باريس حفلاً موسيقيّاً للثنائي الفلسطيني **سبيل**، المكون من عازف الإيقاع **يوس حبيش** وعازف العود **أحمد الخطيب**. يأتي الحفل ضمن فعاليات مهرجان «عربوفولي 2024» الذي يُقام بين الثالث عشر والعشرين من الشهر نفسه.

حكايا من طين: رواية القصص من خلال الفخار، عنوان ورشة تُقام في «ليوان: استديوهات ومختبرات التصميم» بالدوحة، عند الثالثة من ظهر بعد غد السبت. تركّز الورشة على القضية الفلسطينية، وتهدف إلى استكشاف قصص قصيرة من مكتبة أرشيف «ليوان» والتعرّف إلى تقنيات الفخّار المختلفة، كالنحت والتشكيل.